ساحل العاج العقاب الأمريكي لفرنسا!

28-11-2004

جريدة لوفيغارو الفرنسية - ترجمة: ياسمينة صالح

مهما يكن فإن الحرب الأمريكية في القارة الإفريقية قد بدأت وفرنسا تواجه اليوم أولى بوادر التغيير الذي يسميه البعض بالعصيان، في دول لا تريد في النهاية استقلاله بقدر ما تريد تغيير اسم المحتل من فرنسي إلى أمريكي فحسب!

بقلم بقلم : برنارد توماس*

* برنارد توماس (Bernard Thomas) كاتب و سياسي فرنسي مختص في الشؤون الإفريقية، مدير المكتب الفرنسي للعلاقات الإفريقية (BFCA) له عمود أسبوعي في جريدة لوفيغارو بعنوان " لنتكلم بصدق"

ليست هذه أول مرة التي يتفجر فيها الوضع في ساحل العاج، لكنها المرة الأولى التي يصبح الوضع إعلاميا بهذا الشكل، بحيث أن المعركة تخطت حدود المواجهة السياسية التقليدية بين أبيدجان و باريس إلى صراع من نوع آخر ظهرت فرنسا طرفا كبيرا فيه. الأزمة الإفوارية ليست نتيجة أوضاع سياسة مسدودة فحسب، بل نتيجة أوضاع اقتصادية صعبة صنعت "ديمقراطية الطبقات" في دولة يعيش فيها أكثر من 54% تحت درجة الفقر، وهي أيضا نتيجة عكسها في النهاية الواقع الذي تتخبط فيه القارة الإفريقية بين الثورة و التبعية، بين الاستقلال عن الآخر وفي النفس الوقت الاحتفاظ به. وهو ما شكل بؤرة صراع كشف عن كل التناقضات الكبيرة الحاصلة في ساحل العاج و في دول فرانكفونية افريقية. هل يحتاج العالم إلى معرفة أن ساحل العاج مستوطنة فرنسية قديمة ؟ هذا البلد الغارق في الديون وفي المشاكل الاجتماعية والنزاعات العرقية، وصل اليوم إلى مفترق الطرق، لكنه لم يصل وحده إلى هذا المفترق

بل وصلت معه فرنسا الكلونيالية الكبيرة في إفريقيا، إلى مفترق الطرق، لأنه ولأول مرة تبدو الأوضاع قابلة للانفلات بشكل لا يمكن وصفه.
فرنسا لن تستطيع أن تفعل في ساحل العاج ما تفعله الولايات الأمريكية في العراق، حتى لوهي أرادت ذلك، لأنها ببساطة فقدت العديد من مقاعدها في الكثير من بقع العالم. لفهم ما يجري في ساحل العاج يجب العودة قليلا إلى الخلف، بالضبط إلى ما قبل الحرب الأمريكية على العراق. في تلك الفترة تتعرض العلاقات الأمريكية الفرنسية للزلزال. فرنسا وجدت نفسها تقف ضد أمريكا في الحرب. العالم كله تساءل لماذا دولة كولونيالية قديمة مثل فرنسا ترفض خوض الحرب إلى جانب إمبريالية حقيقية بحجم الولايات الأمريكية ؟ لا يمكن الوقوع في خطأ المفاهيم الجاهزة. الشانزلزيه تكلم عن المبادئ، و لكن أية مبادئ يمكن الخوض فيها حين تكون نصف القارة الإفريقية تحت "الاحتلال الفرنسي الأبيض"؟ يقول " جيفري ماكان" من جريدة نيويورك تايمز.. المسألة اكبر من المبادئ، إنها قضية " اعتراض" على الطريقة التي أرادت بها الولايات الأمريكية اقتسام الأرباح البترولية العراقية. نتساءل بكل موضوعية، لو أن جورج دابليو بوش أعطى لجاك شيراك نفس القيمة السياسية و الحربية و المادية التي حظي بها الإنجليز مثلا، هل كان شيراك سيتكلم عن المبادئ والإنسانية؟ هذا بالضبط ما حصل في حرب الخليج الثانية حين شاركت فرنسا في تحرير الكويت مطالبة بحقها في "الريع" وفي "الأرباح"، لكن المشكلة أن أمريكا كانت مغرورة وقتها إلى درجة أنها استعملت عبارة "مراحيض العراق" للحديث عن قوى درجة ثانية التي شاركت في حرب الخليج الثانية (مثل فرنسا).

هذه هي الصدمة التي ابتلعها جاك شيراك بصعوبة، وعلى أساسها قدم وزير الداخلية الأسبق " شوفينمون" استقالته تحت مسميات "إنسانية" إزاء الحرب على العراق أنداك.. لكن اللعبة تكررت. أمريكا أرادت خوض الحرب الكبيرة التي أجلتها أكثر من عشرية كاملة. في الحرب الجديدة رسمت الإدارة الأمريكية الخطة و استثنت العديد من الدول التي وجدت نفسها "خارج اللعبة" في ملعب لم يكن يتسع لغير أمريكا وحدها كقوة عظمى على كوكب الأرض. ذلك كان الخطأ الكبير في اللحظة التي ارتفعت فيها الأصوات بحكاية "أسلحة الدمار الشامل العراقية"، فرنسا التي ساهمت في التسليح العراقي كانت تعرف جيدا أن هذا الأخير (أي النظام العراقي) فقد أسنانه منذ حرب الخليج الثانية، ناهيك على أن الولايات الأمريكية و بريطانيا كانتا على علم بأنه لا أثر لأسلحة الدمار الشامل هناك . لكن اللعبة كانت كبيرة و العودة إلى الخلف مستحيلة. العديد من الخبراء أكدوا أن جاك شيراك كان مستعدا للمشاركة في الحرب على العراق لولا خطأ آخر ارتكبته الإدارة الأمريكية بإسنادها إدارة الجنوب للبريطانيين رسميا، وهو ما كان سيعني أنه لو شاركت فرنسا فيجب أن تكون تحت إمرة البريطانيين و هو الأمر الذي كان سيثير انتفاضة حقيقية داخل القيادة العسكرية الفرنسية العليا. كانت تلك اللحظة الأخيرة التي بموجبها تقرر الموقف الفرنسي، ليس على أساس مبدأ، بل على أساس ردة الفعل على "أشياء" قديمة و تصفية حسابات، جعلت العلاقات تصل إلى مستوى منحط من تبادل الشتائم الإعلامية.

لأول مرة منذ الحرب العالمية الثانية يشعر الفرنسيين المقيمين داخل الولايات الأمريكية بالخوف على أنفسهم داخل هالة الحرب الإعلامية المقامة ضدهم. الشامبانيا الفرنسية أفرغت

في المراحيض كردة فعل شعبية ضد الفرنسيين. دونالد رامسفيلد ذهب بعيدا حين أعلن من مقر الحلف الأطلسي أنه لولا الولايات الأمريكية المتحدة لكان الفرنسيين يتكلمون اللغة الألمانية اليوم، وهي الجملة التي تعني أن الفرنسيين عضوا اليد التي أحسنت إليهم! الغيظ الأمريكي من الفرنسيين بلغ ذروته على كل المستويات، وصارت فرنسا عبارة عن فرقة من دمى أوروبا القديمة كما قال "كولن باول". فرنسا شكلت جبهة مناهضة للحرب، في الحقيقة كانت مناهضة للأمريكيين الذين فتحوا الباب على صراع الحضارات. و في قمة الغضب من الفرنسيين نطق وزير الدفاع الأمريكي أن للأمريكيين القدرة على معاقبة الفرنسيين، و ستحتاج فرنسا إلى أمريكا لتحريرها من ثورات كثيرة قادمة! دونالد رامسفيلد نفسه قال أيضا أنه حان الوقت كي تبحث دول افريقية عن حرياتها و ديمقراطيتها بعيدا عن السيطرة الكلونيالية. و لعل استعماله لعبارة " كولونيالية" كان له الوقع المؤلم على الفرنسيين الذين فهموا اللعبة القادمة.. بتاريخ 10أكتوبر الماضي وصف رئيس المخابرات الفرنسية التحركات الأمريكية في عدد من الدول الأفريقية بالاستفزازي، ولم يكن ثمة مفهوما واضحا لعبارة "استفزازي" سوى من خلال الانتفاضة التي انفجرت وللمرة الثانية في ساحل العاج.

من المنظور العام يمكن الحديث عن الخطاب السياسي الذي استعمله الرئيس العاجي " لوران غباغبو" في تجنيد الإفواريين (وغير إفواريين) لرفع السلاح ضد الفرنسيين. وهو الخطاب الذي جعل أكثر من 10 آلاف شخص يخرجون رافعين العلم الأمريكي و مناديين باسم الرئيس الأمريكي جورج دابليو بوش. آلة المخابرات الأمريكية تحركت و بدأت النتائج تظهر في هذا

البلد الاستراتيجي. فرنسا لم تعد مرغوب فيها و صار ثمة بديل جاهز اسمه : الولايات الأمريكية! كتب مدير مركز الدراسات الاستراتيجية بباريس البروفيسور" جون شارل برو" معلقا على الوضع بأنه تصفية حسابات من الأمريكيين على أرض ليست فرنسية ولا أمريكية، فهي الحرب الأولى في المنطقة التي تبدو معلنة بهذا الشكل باسم الأمريكيين! لكن لماذا؟ العديد من الدراسات الاستراتيجية أثبت أن ساحل العاج بموقعه الاستراتيجي يمكنه أن يتوفر على البترول. بنفس الطريقة التي اكتشفت فيها أمريكا البترول في "دار فور" السودانية.
أمريكيون أنفسهم اعترفوا أن الأقمار الصناعية كشفت بنسبة 71% من وجود البترول في دار فور، وأن إدارة الأمريكية لن ترفع إصبعها الأصغر في منطقة من دون أن تحسب مكاسبها مسبقا. ثم يجب القول أن الاهتمام الأمريكي سببه أن الموقع الاستراتيجي لغرب إفريقيا يحمل في جوفه 10% من احتياطيات النفط في العالم. الاهتمام الأمريكي المنصب على القارة الإفريقية فتح شهية الاستخبارات التي صارت نشيطة في المنطقة، فحجة البحث عن مواقع الجماعات الإسلامية المختبئة في أدغال كينيا كجماعة " أبو علي العراقي" التي تتهمها الولايات الأمريكية بأنها موالية لتنظيم القاعدة و أنها ساهمت في التفجيرات التي شاهدتها العاصمة الكينية سنة 1996، لكن الغريب أنه وفق تحقيق نشر على الانترنت اثبت أن جماعة ما يسمى بأبي علي العراقي هي في الحقيقة جماعة مرتزقة يحكمها " جوريس هاكبو" كيني الأصل و كان واحدا من المتخرجين من مدرسة الاستعلامات المركزية الأمريكية، و ألا وجود لأي شخص باسم أبو علي العراقي الذي أطلقت السي إي آي اسمه لفرض نظرية التقارب بين تنظيم القاعدة و النظام

العراقي المخلوع. مهما يكن فإن الحرب الأمريكية في القارة الإفريقية قد بدأت وفرنسا تواجه اليوم أولى بوادر التغيير الذي يسميه البعض بالعصيان، في دول لا تريد في النهاية استقلاله بقدر ما تريد تغيير اسم المحتل من فرنسي إلى أمريكي فحسب!